4

الرمـز والإِيمــان

إِذا نحن تقدمنا في الزمن قليلاً مروراً بسقوط الإِمبراطورية الرومانية وصولاً إِلى مرحلة بزوغ إِمبراطوريات جديدة في الشرق، لرأينا بأَن الذَّهب قد اكتسب أَهميَّة أكبر من أهميته في الماضي سواء كأداة للزينة أم كنقد. فمراكز القوة تبرز وتختفي والنُّظم المالية تنمو وتتلاشى وتتكشف مصادر جديدة للذهب، لكن التركيز على الذَّهب يبقى ثابتاً لا يتغيَّر ليربط عصراً ما بالعصر الذي يليه. فلا شيء سوى الذَّهب يعود بالمنفعة على أمة تسعى لاكتساب القوة.

في سنة 200 بعد الميلاد، عندما بلغت الإِمبراطورية الرومانية عمراً يناهز عمر الولايات المتحدة الأمريكية سنة 2000 بعد الميلاد، بدأت عاصمة الإِمبراطورية تفقد سلطانها على الأقاليم البعيدة، لكن قطع النَّقد الرومانية كانت ما تزال قيد التداول في كل مكان. وكان النَّقد الروماني، كالدولار الأمريكي، قد فقد قوته الشرائية، وفي بعض المناطق، فقد الاحترام الذي تمتع به في

السابق، ومع ذلك، كان هو النَّقد الوحيد المتداول في جميع أنحاء الإمبراطورية.

وعندما استسلمت الأقاليم الأوروبية التي كانت خاضعة لروما، إلى غزوات البرابرة وتعرّضت لأعمال النهب، اختفت منها العملة التي كانت شائعة التداول. ولم يتوقف تداول العملة نتيجة أي مرسوم أو اتفاق بين الحكّام الجُدد الذين كثر عددهم داخل حدود الإمبراطورية القديمة. فقد توارت العملة الرومانية عن الأنظار لأن قطع النَّقد ذاتها قد اختفت.

لم تكن هناك حاجة كبيرة للنقد في ظل الدمار والأهوال التي ألقت بظلالها على السنوات الأولى من عصور الظلام. فقد تلاشت تقريباً حركة التجارة والسفر عبر أوروبا. وحلَّ الخراب بالحياة في المدن نظراً لتجمّع الناس حول أقرب ما يمكنهم بلوغه من مصادر الغذاء، كما أن البرابرة أنفسهم كانوا قد أتوا من مجتمعات ريفية ولم يكونوا معتادين على الحياة في المدن. أما الطُّرق الرومانية الرائعة فقد تحولت إلى أخاديد، وتدهورت مهارات البناء بالآجر. ولم تكن هناك ثمة حاجة للنقود لدفع رواتب الجنود نظراً لأن الجيوش التي كانت تُشرف عليها الحكومة، تمَّت الاستعاضة عنها بزُمَرٍ من الهمج الرحّل الذين عاشوا على مشارف الأقاليم.

ولكن القطع النّقديَّة مصنوعة من مادة صلبة. فهي لا تتلاشى في الهواء، على عكس الدولارات التي تظهر على شاشة الكمبيوتر. ولقد حافظت القطع النّقديَّة الرومانية على وجودها وكأن شيئاً لم يحدث، رغم ندرة تداولها كنقد. فإلى أين ذهبت إذاً؟ . . .

لقد قام النَّاس بتخزين القطع النّقديَّة والقطع الذَّهبية الأخرى وذلك في مواجهة الشعور المخيف بالقلق والوحشة في تلك الأيام. ولقد اكتشف علماء الآثار كميات ضخمة من الكنوز المطمورة منذ عصور الظلام في كل أنحاء أوروبا، حتى في إسكندنافيا في أقصى الشمال. وقد استمر تخزين الذَّهب في

أوقات القلق والخوف عبر معظم مراحل التاريخ التي تلت تلك الأيام، واتخذ نفس الشكل البدائي أحياناً، واتخذ أشكالاً أكثر تطوراً في أحيان أخرى. فمن حيث المبدأ، ليس هناك فرق كبير بين طمر الذَّهب في فسحة المنزل الخلفية خلال عصور الظلام، وبين الجهود اليائسة التي سنراها لاحقاً، والهادفة لإيجاد احتياطي من الذَّهب ومن ثم الحفاظ عليه في بنك إنجلترا خلال سنتي 1930 و1931.

وحيث أَن الذَّهب عنصر خامل كيميائياً، فهو يصمد أمام مرور الزمن وأمام التلف الذي تحدثه الطبيعة وأمام تقلّبات الطقس وألاعيب البشر. فعندما سقطت روما، كانت كل أونصة تقريباً من الذَّهب تمَّ تعدينها أَو استخراجها من الجداول الجبلية منذ فجر التاريخ، كانت لا تزال موجودة في مكان ما، وقد اتخذت شكلاً معيناً وصمّمت لتستخدم بشكل محدد، عدا الذَّهب الذي فقد في الأنواء البحرية(*). وحتى هذا الذَّهب المفقود، ظل يلمع في مدفنه تحت المياه بانتظار من يريد استرجاعه يوماً ما. ولقد مرّت كميات كثيرة من الذَّهب المتوفِّر في العالم بالعديد من التحولات على مرّ القرون، لكن تلك الكميات كانت لا تزال هناك ـ حول أصابع اليدين وأصابع القدمين أَو حول الأعناق أَو مخبأة بالمخازن، أَو على شكل نقد أَو في القصور أَو في دور العبادة أَو في السفن الضخمة الغارقة في البحر. فعلى سبيل المثال، عندما دفن تشيلدريك، مؤسِّس السلالة الميروفية في بلاد الغال، سنة 481، وضع في قبره الكثير من قطع الذَّهب بما في ذلك ثلاثمائة نحلة ذهبية زينت رداءه الرسمي[1]. وفي واقع الأمر إنّ قطع النَّقد الرومانية والمجوهرات ومواضع العبادة في أماكن كثيرة، لا بدَّ وأنها تحوي أَجزاء من الذَّهب تعود إلى مصادر قديمة، كالهدية السخية التي

(*) إن الذهب معدن لين ومطواع بحيث أن بعضاً منه قد يختفي، وبخاصة عندما يكون على شكل قطع نقدية وذلك لسبب بسيط، وهو الحك المتواصل أثناء انتقاله من يدٍ إلى أخرى.

قدّمتها ملكة سبأ إِلى سليمان، والعمود الضخم الذي أقامته حتشبسوت وحوض استحمام داريوس وحتى العجل الذهبي على سفوح جبل سيناء. وفي وقتنا الحالي إِنَّ أغلب السبائك الذَّهبية والكثير من المجوهرات وعدد لا يُحصى من القطع التزيينة تعود إِلى المنبع ذاته.

إِن الأحداث التي تلت سقوط روما، كانت متنوعة من حيث الزمان والمكان بحيث يصعب جمع تفاصيلها بإِحكام. فالعصور التي دُعيت بعصور الظلام لم تخل من بعض خيوط النور التي انسابت إِليها في بعض الأحيان، بالإِضافة إِلى أنَّه على رغم الاختلاف الكبير بين تاريخ الإِمبراطورية الرومانية الشرقية في القسطنطينية وبين ما حدث في أوروبا، فإِن التفاعل بين الشرق والغرب قد استمر بحيث أَن أي مسعى لتمييز أحد التاريخين عن الآخر بشكل قاطع، ربما أدَّى إِلى التشويش أكثر منه إِلى التوضيح.

وقد كان الاهتمام الشديد بالذَّهب هو أحد القوى الرئيسة التي أدَّت إِلى ربط المنطقتين بعضهما ببعض. فقد لعب الذهب، بوصفه نقداً ووسيلة للزينة، دوراً مركزياً في بيزنطة. وفي أوروبا، بدأت الممالك الوليدة التي لم يكن قادتها قد سمعوا باسم كرويسوس أَو كراسوس، بضرب نقدها الذَّهبي بأسرع ما يمكن، كما ازدهر فن صناعة المجوهرات حتى ضمن أكثر الظروف السياسية بدائية، وهكذا، فإِن الزواج التقليدي بين وسائل الزينة الذَّهبية وبين الدين ـ رغم أنَّه لم يخل من المشاكل شأنه شأن الكثير من الزيجات ـ إِلاَّ أنه لم يصل إِلى مرحلة الطلاق.

سنلقي أولاً نظرة على بيزنطة، ويعود السبب جزئياً إِلى أن تاريخها ليس معروفاً بنفس الدرجة كتاريخ أوروبا. والسبب الأهم، هو أن الذَّهب الذي

شكَّل عاملاً مهمَّاً في الإمبراطورية البيزنطية قبل وقت طويل من بداية الاهتمام الشديد به في الغرب.

استمر حكم الأباطرة البيزنطيين من القسطنطينية لمدة تزيد على ألف سنة. ويمكن القول، عموماً، بأنَّهم شكَّلوا مجموعة من الأشخاص الفاسدين والمتآمرين القساة. وتُعتبر قصة آيرين المرعبة نموذجاً لذلك العصر. ففي سنة 780، أصبحت آيرين وصية على ابنها قسطنطين السادس، الذي كان في العاشرة من عمره، واعتبرت هي أن مقدار السلطة الذي منحته لها الوصاية لم يكن كافياً ولا دائماً، لذا تآمرت على قسطنطين الصغير سنة 792، ثم دبَّرت أمر اعتقاله وسمل عينيه لتتأكَّد من أنَّه قد أصبح عاجزاً تماماً. حكمت آيرين مدة عشر سنوات لا كإمبراطورة بل كإمبراطور. وفي سنة 802 جاء دورها، فقد تم خلعها عن العرش على يد وزير ماليتها نيسوفوروس، ونفيت إلى ليسبوس[2]. اعتلى نيسوفوروس العرش مدة تسع سنين قبل أن يُقتل في كمين في شعب جبلي أثناء حملته ضد البلغار. وقد أمر كروم، قائد البلغار، بأن تُكسى جمجمة نيسوفوروس بالفضة من الداخل ليستخدمها ككأس للشراب[3].

إنَّ الإمبراطور الذي أفضله أكثر من غيره ضمن سلسلة الأباطرة هو بازيل الثاني (ويعرف أيضاً باسم بازيل بلغاروكتونوس، أو «ذابح البلغار»)، وقد حكم في الفترة ما بين سنتي 976 ـ 1025. كان بازيل مثالاً يُحتذى لشخصية الوغد في الأفلام الأولى لهوليوود. فقد وُصف بأنَّه «حقير وقاسٍ وسريع الغضب»، ذو شاربين كثّين يحب أن يفتلهما بأصابعه في لحظات الغضب الشديد أو في المقابلات الرسمية[4]. كان بازيل هذا قاتلاً بقدر ما كان مظهره يوحي بذلك، فبعد أحد الانتصارات الكبيرة التي حقَّقها على البلغار، أمر بسمل أعين كل جنود العدو الذين نجوا من الهجوم الضاري الذي قام به، ومن بين كل مائة رجل أعفى واحداً فقط ليتمكَّن هؤلاء المبصرون من قيادة الناجين التعساء

العائدين إلى قيصرهم. لم يحتمل القيصر منظر جنوده المشوهين لدى وصولهم، فأُصيب بسكتة قلبية لهول الصدمة ومات على الفور[5].

قد يكون الأباطرة البيزنطيون جلّلوا فترات حكمهم بالعار من الناحيتين الأخلاقية والسياسية، لكن سلامة بيزنط قسطنطين الذهبي ونقاءه وشهرته وإمكانية قبوله، كان الشغل الشاغل بالنسبة لهم جميعاً. وما يميِّز كل تاريخ الإمبراطورية البيزنطية هو هوس التركيز على الذَّهب، ليس بشكل نقد فحسب، ولكن كإعلان عن ثروة لا تُضاهى. كان الذَّهب هو الوسيلة الرئيسيَّة التي استخدمها الأباطرة، بالإضافة إلى القسوة والبطش، لضم أنحاء مناطق نفوذهم المبعثرة والمتباينة بعضها إلى بعض. وقد قام البيزنط الذهبي بتمويل واردات الإمبراطورية وجيوشها وتحالفاتها مع الأُمم الأخرى.

كان الجهد الذي بذله جستنيان للتفوّق على سليمان، وذلك في بناء كنيسة القدِّيسة صوفيا وتزيينها بمخزون من الذَّهب، كان قد ورثه، بلغ ما يقارب الثلاثمائة ألف باوند، كان ذلك مثالاً آخر على الإفراط في استخدام المعروضات الذَّهبية في استعراض صارخ للقوة، وقد كانت القصور المليئة بالمتاهات والتي اقتناها الأَباطرة على ضفاف البوسفور، مكسوة بزخارف غنية بالذَّهب وبالجواهر الثمينة، إذ أن أسلوبهم لم يكن يتّسم بالبساطة. لكن الإمبراطور ثيوفيلوس أحرز قصب السبق في مضمار التباهي والتفاخر، فقد أمر بصنع شجرة ذهبية لتظلِّل عرشه الذهبي. وكان يحف بالشجرة وبالعرش طيور وأسود وحيوانات خرافية نصفها نسر ونصفها الآخر أسد، وكلها مصنوعة من الذَّهب، ولدى وصول زائر، كانت الأسود تلوح بذيولها وتزأر، بينما تصدح الطيور بالترحيب[6].

وقد جرى استخدام الذَّهب بطُرق متنوعة وواسعة بحيث استُدعي صاغة القسطنطينية المهرة للعمل في جميع أنحاء أوروبا، وبخاصة في إيطاليا. وكانوا هم الفنَّانين الرئيسيين في عصور الظلام، خلال تلك القرون التي لم تكن فيها فنون الرسم والنحت والعمارة قد أصبحت بعد هي الأشكال السائدة للفن، فقد عملوا في الفسيفساء التي تغطي مداخل سانت مارك في البندقية، وفي الفسيفساء التي تأخذ الألباب في كنيسة سان ڤيتال في رافينا جنوب البندقية، ووصلوا حتى مونريال خارج باليرمو، وعندما رأى الصاغة الأوروبيون تلك الأعمال الجميلة الدقيقة التي نفَّذها نظراؤهم البيزنطيون، غدا الأسلوب البيزنطي هو الأسلوب الشائع في مستهل العصور الوسطى. وكان شفيع الصياغ، القديس إيلوي (641 ـ 660) المعروف أيضاً باسم (القديس إيليجيوس)، راهباً وقيّماً على دار السكّ، أتى من بلاد الغال في القرن السابع وتعلم مهاراته في القسطنطينية[7]. ويشهد ظهوره المتكرر في اللوحات خلال القرن الخامس عشر على مقدار أهميته وشهرته. أما الصاغة الإنكليز، فقد كان لهم شفيعهم الخاص، القديس دانستان، وهو راهب بنيدكتي وفنَّان ماهر، كان رئيس أساقفة كانتربري منذ سنة 960 وحتى سنة 988. ويبدو أنَّه كان رجلاً فذّاً: ففي مطرزة ذهبية تعود لسنة 1470، نراه في مشغله يلوي أنف الشيطان[8].

لم يعدُ الذَّهب المعروض للعيان كونه واجهة فحسب، فخلف الكواليس كان الأَباطرة يكنزون كمياتٍ من القطع النّقديَّة والسبائك. فقد كان لدى بازيل بلغاروكتونوس ما يربو على مائتي ألف باوند من الذَّهب، خزّن معظمها في غرف تحت الأَرض. وفي سنة 530 تقريباً، امتلك الإمبراطور أناستاسيوس ما يقارب الثلاثمائة ألف باوند. أما الإمبراطورة تيودورا، التي حكمت بعد آيرين بأربعين سنةً تقريباً، فقد كانت تمتلك لدى وفاتها مائة ألف باوند. ولا شك بأن تلك المبالغ كانت مبالغ ضخمة بالقياس لعصرها، لكنها تشكِّل تبايناً مثيراً مع

عصرنا الحالي الذي تحسب فيه مخزونات الذَّهب بألوف الأطنان لا بألوف الباوندات.

لقد شكَّل الذَّهب غطاء آمناً. فكثيراً ما كان الحكام البيزنطيون يذهبون للحرب، وعندها كان يتعين دفع مرتبات الجنود ذهباً، لكن الأَباطرة لم يصلوا قط لمرحلة توقف فيها تهديد الأعداء. فقد كانت الإمبراطورية مهدَّدة باستمرار من الغرب من قِبل البلغار والقبائل الجرمانية، وبعد القرن السابع، تهددها من الشرق والجنوب الجيوش الإسلامية التي كانت تهاجم كل كافر يقع تحت أنظارها. وبما أن البيزنطيين لم يكن بإمكانهم أن يقاتلوا على جميع الجبهات في نفس الوقت، فقد كانوا يدفعون إتاوات ذهبية لا تنقطع لإبقاء أعدائهم في وضع حرج، وذلك بأن يدفعوا مباشرة للمعتدين المحتملين اتقاء شرهم، أَو بأن يقدموا الرشاوى للحلفاء الأوروبيين ليؤمنوا لهم الحماية. ويدعى ذلك في وقتنا الراهن: الأمان الذي يستنفد الموارد.

كان ذلك الأسلوب مهماً بشكل خاص فيما يتعلَّق باللومبارديين، الذين ربطتهم بالأَباطرة البيزنطيين علاقة طويلة ولكنها غير مستقرّة. وقد جاء اللومارديون الذين عُرفوا أصلاً باسم لانغوباردز Langobards (ذوي اللحى الطويلة)، من أراضي هنغاريا الحالية. وخلال الفترة ما بين 568 ـ 569 قاموا، بمساعدة الساكسون والسلاف، بغزو إيطاليا بجيش مؤلَّف من مائة ألف رجل يقودهم ملكهم ألبوين ـ وهذا هو سبب تسمية شمال إيطاليا باسم لومبارديا(*). وقد لاقى ألبوين المسكين نهاية غير سارَّة. فخلال احتفال صاخب، رغب في تقليد فظائع كروم قائد البلغار بأن حاول إقناع زوجته روزاموند أن تشرب من

(*) ربما يود القراء الميالون للأسماء ذات الإيقاع النابض بالحيوية، أن يعرفوا بأن اسم سَلَف ألبوين Alboin كان واتشهو Wachho.

جمجمة أبيها، وهو ملك قبيلة معادية كان ألبوين قد قتله. لم ترق الفكرة لروزاموند التي قتلته على الفور[9].

شكّل الغزو اللومباردي الواسع لشمال إيطاليا تهديداً للممتلكات البيزنطية الثمينة في البندقية وفي رافينا. فبدون الذّهب، يضيع كل شيء. قام الأباطرة أول الأمر برشوة بعض الجماعات من اللومبارديين لتحارب جماعات لومباردية أخرى. ثم قاموا ببذل الذّهب لكسب الفرنكيين إلى صفّهم وهم قبيلة جرمانية أخرى استقرّت في بلاد الغال، أو فرنسا الحالية. واستمرّ الذّهب في التنقّل من أيدي البيزنطيين إلى الفرنكيين، ومن أيدي البيزنطيين إلى اللومبارديين ليعود فينتقل بين اللومبارديين والفرنكيين، إذ كان كل فريق يستخدم الذّهب لرشوة الآخرين أو لاتقاء شرّهم.

ودامت الحروب بين اللومبارديين أنفسهم مستعرة حتى منتصف القرن الثامن حيث توصّلوا في النهاية إلى توحيد كلمتهم. كانت الملكية التي أسّسها اللومباربديون راسخة ومبعثاً للتهديد بحيث لم يكن البيزنطيون وحدهم هم من قرّروا أن من الواجب القيام بتصرّف حاسم ونهائي ـ وحتى البابا أخذ جانب البيزنطيين هذه المرة. ففي سنتي 754 و756 ضم الاثنان جهودهما لدعم غزو شامل للومبارديا قام به الفرنكيون، وكان العامل المحرّك لهذا الغزو رشوة بلغت خمسين ألف صوليدوس ذهبي[10].

بعد أن هزم الفرنكيون اللومبارديين وصدّوهم، شرعوا بجباية الإتاوات من كل من حلفائهم وأعدائهم المهزومين ـ ووصلوا في إحدى المراحل إلى أن يقوموا بجباية إتاوات سنوية وصلت إلى إثني عشر ألف صوليدوس[11]. إنّ تراكم كل ذلك الذّهب في ما سيصبح فرنسا يوماً ما يفسّر كون الملوك الميروفيين هم الذين بدؤوا بالعودة لسكّ النّقد الذّهبي في أوروبا بعد سقوط روما. وخلال الفترة ما بين 773 ـ 774، قام الملك شارلمان، ملك الفرنكيين الميروفي، بإخضاع مملكة لومبارديا وألحقها بإمبراطوريته. وفي المقابل، قام

البابا بتتويجه إمبراطوراً على الإمبراطورية الرومانية المقدّسة وذلك في سنة 800. ولعدة قرون تلت بقي الفرنسيون يتوقون لأن تصبح لومبارديا جزءاً من مملكتهم الطبيعيَّة، حتى جاء فرانسيس الأول الذي طالب بها وأعادها لفرنسا سنة 1515، لكنه لم ينل من البابا في تلك المناسبة إلاَّ وجبة احتفالية باذخة ـ ولم يطل به الأمر حتى خسر لومبارديا مرة أخرى أمام إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدّسة في ذلك الوقت.

من أين أتى كل ذلك الذَّهب؟ . . . إنَّ مكانة البيزنطيين المتفوقة في عالم العصور الوسطى لم تكن لتعتمد على مصادر محلية من الذَّهب، كما أن موارد الذَّهب من نهر باكتولوس، التي بدت لكرويسوس كبئر لا قرار له، كانت قد نضبت منذ وقت طويل، ولم يكن هناك ما يشير إلى وجود مصادر مهمَّة أخرى في الأراضي البيزنطية. ورغم أن جزءاً من الذَّهب كان يأتي من خلف الحدود الشرقية أي من مناطق بعيدة مثل روسيا، إلاَّ أن أغنى مصدر للذهب المعدّن كان في مناجم النوبة القديمة جنوب مصر وفي السودان.

ولسوء الحظ، لم يطل الأمر بالنوبة كمورد للبيزنطيين، فقد قام العرب المسلمون بإخضاع تلك المناطق في القرن السابع، وأقاموا علاقات دائمة مع النوبيين، وهكذا، وبضربة صاعقة، قطعوا مصدراً كان يبدو وكأنَّه لن ينضب، مصدراً نَعِمَ البيزنطيون بثماره طويلاً.

كانت تلك صدمة مروعة. وقد وصف أحد المؤرخين واسمه روبرت سابا تينو لوبيز، وهو عالم بارز في تاريخ النَّقد، وصف ما حدث بالقول: «لقد غدت الإمبراطورية التي كانت مثار دهشة العالم لوفرة ثرواتها وفيض نقدها الذَّهبي، أصبحت عرضة للتهديد الدائم بنضوب مخزونها من المعادن الثمينة»[12]. وأمست التجارة والحملات العسكرية والضرائب وأعمال النهب

الظالمة هي السبيل الوحيد لسدّ حاجات ولع الأَباطرة بالذَّهب، ذلك الوقع الذي شكّل أساساً للوهم الذي استمدوا منه جزءاً كبيراً من قوتهم. وقد جلبت الانتصارات العسكرية أَكثر من مجرد الغنائم من الجيوش المهزومة (عندما استولى نيسفوروس على الكنز الملكي البلغاري، وضع دمغة الختم الإِمبراطوري على كل قطعة منه)[13]. وبأسلوب يشبه برامج الخصخصة المعاصرة، تمّ توزيع الأَراضي المصادَرة على المسؤولين والجنود والبحّارة مما أَدَّى إِلى إِيجاد دخل جديد للضرائب. ومع ذلك، بقيت الانتصارات في ميادين القتال مصدراً غير مضمون أَو ثابت، أَما الضرائب فكانت مصدراً يمكن التنبؤ بنتائجه، وتقدّم مساعي وكلاء الإِمبراطور في هذا المضمار، القاسية والوحشية والخالية من الرأفة، مثالاً ربما أثار حسد أي جابٍ معاصر للضرائب. ولكن هناك حدود حتى لفرض الضرائب.

كانت نتيجة خسارة النوبة أن أصبحت التجارة الوسيلة الرئيسية لجلب الذَّهب إِلى خزائن الأَباطرة، وإِلى التجارة وأصحاب الصناعات الذين شكَّلوا المصدر الرئيسي لعائدات الضرائب. وقد اتّخذت التجارة البيزنطية شكل مثلث يضم أوروبا من جهة، والمسلمين في الجنوب من جهة أخرى. ولم تكن بيزنطة تستورد إِلاَّ القليل من سلع الأوروبيين إِلاَّ أَنَّها كانت تبيعهم وسائل الترف التي تضمَّنت أجمل الأنسجة وأبدع الأعمال الفنيَّة لصاغة الذَّهب. أما الأقمشة الحريرية المنسوجة في القسطنطينية والمجوهرات ومواد الزينة التي أبدعها الصياغ، فقد كانت شديدة الرواج في أوروبا، واشتد الطلب عليها إِلى الحد الذي دفع بالبيزنطيين إِلى البدء بصناعة الحرير بأنفسهم. وقد جلبت تلك الصادرات من الذَّهب ما يكفي لإِعادة التوازن إِلى فائض الواردات الذي كان قائماً على الدوام مع الدول الإِسلامية. كما حافظ المسلمون على توازن تجاري إِيجابي مع أوروبا، حيث باعوها وسائل الترف وزيت الزيتون والجياد مقابل الأخشاب والحديد والعبيد[14].

بعد خسارة النوبة مباشرة، وضع الأَباطرة جملة من الترتيبات الهادفة لتسهيل النشاط التجاري مع الدول الأخرى، بما في ذلك إِجراء تحسينات هامَّة على مرافق الميناء حيث أصبح بإِمكان المسؤولين حماية البضائع من اللصوص. كما فرض الأَباطرة ضوابط على التجارة بشكل قيود صارمة على تصدير الذَّهب والمواد الغذائية الأساسية، وبذلوا جهوداً متواصلة لتحديد الواردات وجعلها مقتصرة على المواد الغذائية والمواد الخام التي لا يجري إِنتاجها في الإِمبراطورية. كل ذلك جعل رجال الجمارك لا يتوقفون عن العمل في تفتيش أمتعة المسافرين والقيام بزيارات تفتيش مفاجئة على الحوانيت وضبط حركة السبائك الذَّهبية والبيزنط الذَّهبي ومنع القطع النقديَّة المزورة من التسلل إِلى مجال التداول.

رغم كل ذلك، فشلت الحكومة البيزنطية في تطوير أية خطة منهجية لتشجيع الصناعة أَو حتى لمسك الدفاتر فيما يتعلَّق بالواردات والصادرات. ولكن على أية حال، لا يمكن فعلياً تتبع مسارات من هذا النوع دون وجود مصرف مركزي أَو أية منشأة أخرى يعبر كل الدفق المالي من خلالها في نهاية المطاف. كان كل تاجر يسوي حساباته الخاصة مع التجار في الدول الأخرى، ولهذا، كان تدفق النَّقد الإِجمالي في كلا الاتجاهين كبيراً، أما التدفق الصافي سواء نحو الداخل أَو الخارج فقد كان غير واضح المعالم.

كانت العملية برمتها ستواجه فشلاً ذريعاً لولا وجود البيزنط. ففي كل من المجالين العسكري والتجاري، شكَّلت تلك العملة الذَّهبية الرائعة والمسماة بالبيزنط أساساً للثروة والنجاح المالي في بيزنطة. ولم يدخر الأَباطرة وسعاً في اتباع الأسلوب الليدي القائم على استخدام النَّقد الذَّهبي ليس كمجرد مال ولكن بوصفه وسيلة للعلاقات العامة والدعاية كسبيل للتأكيد على قوتهم وثروتهم. وقد وصف أحد معاصري جوستنيان الوضع بقوله إن العملة الذهبية للإِمبراطورية كانت «مقبولة في كل مكان من أَول أركان الأَرض وحتى آخرها.

وهي تحظى بإعجاب الجميع في جميع الممالك، لأنَّه لا توجد مملكة لديها عملة تمكن مقارنتها بها». كما صرَّح معاصر آخر: «لا يحق للملك الفارسي أو لأي ملك آخر في كل أصقاع العالم الهمجي أن يطبع رسمه على دينار ذهبي، حتى ولو وُجد الذَّهب في مملكته، ذلك لأنهم لا يستطيعون تقديم عملة كهذه إلى من يعقدون معهم صفقات العمل». وبعد مائة سنة، شن جوستان الثاني (658 ـ 711) الحرب على العرب لأن الخليفة ضرب عملة ذهبية ووضع رسمه عليها. خسر جوستنيان الحرب، لكن الهزيمة لم تثن المؤرخ البيزنطي عن القول: «لا يسمح بدمغ أية علامة على النَّقد الذَّهبي عدا رسم إمبراطور الرومان»[15]. لكن جوستنيان بالإضافة لذلك، كسب نصراً معنوياً في ذلك الصراع، إذ أن المسلمين قاموا لاحقاً بوضع الآيات القرآنية عوضاً عن الشخصيات الدينية المطبوعة على البيزنط، وبذلك تميز الدينار العربي عن غيره لعدة مئات من السنين[16].

لم يفقد البيزنط شهرته بانقضاء القرون: ففي تاريخ ليس بالبعيد، وهو سنة 1951، وصف لوبيز البيزنط بأنَّه «دولار العصور الوسطى». ولربما كان أفضل حتى من الدولار «فلقد تفوق البيزنط على الدولار من حيث ثباته وقيمته الفعليَّة. لم يحدث أن توصلت عملة أخرى إلى أن تكون مساوية له أو حتى أن تكون قريبة منه»[17]. ويمضي لوبيز ليؤكد أن «البيزنط كان أكثر من مجرد كتلة من الذَّهب. كان رمزاً وضرباً من الإيمان، وهو رسول الإمبراطور المميز إلى شعبه، وسفير الشعب المختار إلى سائر أمم الأرض»[18].

حملت الإصدارات الأولى من قطع البيزنط رسوم الأباطرة، ورسوم الزوجات في بعض المناسبات، وأيضاً رسوم الأبناء في كثير من الأحيان. ثم قرر جوستنيان ألا يكتفي بإظهار أهميته بل وورعه كذلك. فقام بخطوة ثوريَّة تمثَّلت في القيام بوضع رسم جذع السيد المسيح، تحيط برأسه هالة، على العملة التي ضربها. فكانت تلك مبالغة في ذلك العصر. وقد شكَّلت جرأة

جوستنيان هذه، الشرارة التي أشعلت نار حركة معارضة توقير الرموز الدينيَّة iconoclasm، وذلك عندما هبَّت الجماهير والأَباطرة للقضاء على جميع تعاليم تبجيل الصور والممارسات داخل الكنائس. كان سكّ ذلك النَّقد حادثاً عرضياً، فقد تركَّزت الحركة بشكل رئيسي على الأيقونات ذات الهالات الذَّهبيَّة التي زيَّنت جدران الكنائس، والتي أصبحت تعتبر هدفاً لمشاعر التبجيل التي تحوَّلت إِلى شكل من أشكال العبادة. حيث كانت تلك الأيقونات تعتبر مسارات تمر بها القوة العليا وهي في طريقها إِلى البشر. ولم تشكِّل نتيجة هذه الحركة أية خسارة للأَباطرة: فقد ملؤوا خزائنهم بالذَّهب الذي تم انتزاعه من أماكن العبادة على يد مناوئي توقير الرموز الدينيَّة. إِذاً، لم يختف الذَّهب المنتزع من الأيقونات البيزنطيَّة، تماماً مثلما أن الذهب الروماني لم يختف أيضاً، فقد عاد للظهور في أماكن وأشكال جديدة.

أصبحت حركة معارضة توقير الرموز الدينيَّة iconoclasm سياسة رسميَّة سنة 730 في ظل حكم ليو الثالث (741 ـ 717)، وأدَّت إِلى فترة من الاضطهاد الوحشي لرجال الدين المعارضين لها، دامت لأَكثر من مائة سنة، رافقتها معارك عسكريَّة شنَّت ضد كل من يتجرأ على الاستمرار في الاعتقاد بالأفكار القديمة. وتقول الرواية أن ليو كان شخصاً أثيراً ومقرّباً من جوستنيان الثاني، ضارب النَّقد الذي لم يحسن التصرف. وكترجيع لقصة جيسون والجزة الذَّهبيَّة، بدأ الشك يساور جوستنيان بشأن ليو، لذا قام بإِرساله في مهمة بالغة الخطورة في أقصى الحدود الشرقيَّة. وكانت مفاجأة لجوستنيان أن أنجز ليو مهمته وعاد إِلى قسطنطينيَّة سليماً معافى. وفي سنة 717 وبعد مرور فترتي حُكْم لإِمبراطورين، سار ليو بجنوده ودخل العاصمة ليستولي على السلطة وليعتلي العرش.

كان ليو قائداً عسكرياً فذّاً أحرز عدة انتصارات تضاف إِلى انتصاراته على مناوئي حركة الإِيكونوكلازم. وقد حكم إِمبراطوريَّة شملت كل تركيا الحاليَّة إِضافة إِلى ثلاثمائة ميل بعد الساحل الشرقي للبحر الأسود، وجزيرتي قبرص

وكريت وكل الساحل الغربي لبحر الأدرياتيك وكامل الجنوب الإيطالي وصولاً إلى مائة ميل تقريباً شمالي نابولي. وكان يقوم بالدفاع عن أراضيه ضد هجمات العرب المتكرِّرة من الأَرض والبحر، فقد كان العرب شديدي الرغبة في إنشاء موقع متقدم لهم في جنوب شرق أوروبا. وعندما كان ليو يتوقف عن قتاله المفعم بالتصميم والشجاعة على الجبهة الدينيَّة ضد مناوئي حركة الإيكونوكلازم، كان يتفرّغ لإجبار اليهود المقيمين ضمن أراضيه على الإذعان للمعموديَّة[19].

تمّت الخطوة الأولى باتجاه استعادة عبادة الصور بتحريض من الإمبراطوريَّة آيرين التي قامت بتنظيم مجلس كنسي عام في القسطنطينيَّة سنة 786. وفي المقابل، قامت الكنيسة الأرثوذكسيَّة برفع آيرين إلى مرتبة القديسين على الرغم من كل ما أحاط بشخصيتها وفضيلتها من عيوب[20]. وأخيراً انتهت مرحلة الإيكونوكلازم بشكل رسمي سنة 843 بأمر من تيودورا التي اكتفت وبكل تواضع بحمل لقب إمبراطورة. عادت الأيقونات لتحتل مواقعها السابقة وعاد توقيرها ليسترد مكانته في العقيدة الأرثوذكسيَّة. وسرعان ما لحق تصميم النَّقد بالرَكْب. فقد بدأت تظهر رسوم أجسام الأَباطرة وهم يرتدون الخوذات ويحملون الصلبان، وقد وُضع رسم المسيح أحياناً على الوجه المقابل لصورة الإمبراطور، كما ذهب جون الأَول تسيميسيس إلى أبعد من ذلك، فقد أصدر نقداً يحمل رسمه والسيدة العذراء ذاتها تقوم بتتويجه وتبدو يد الرب في أعلى الرسم[21].

بدا كل ذلك رائعاً بطريقته الخاصة طالما أنَّه كان مستمراً في البقاء، ولكنه لم يحدث في التاريخ أن دام سلطان دولة ما على أخرى إلى الأبد. فبعد سقوط القسطنطينيَّة بيد الصليبيين سنة 1204، بدأ البيزنط يفقد نقاءه نظراً لإنقاص نسبة الذَّهب فيه، وبالتالي، بدأ يفقد القبول الواسع الانتشار. وبعد خمسين سنةً، بدأت القوى التجاريَّة الإيطاليَّة الصاعدة في فلورنسا وجنوى والبندقيَّة بإصدار

نقد ذهبي اكتسب شهرة في ذلك العصر تماثل الشهرة التي كان البيزنط قد حقَّقها في ذروة مجده. وفي منتصف القرن الرابع عشر، كان مواطنو بيزنطة يدفعون ضرائبهم بالدوقيات الذَّهبيَّة الصادرة في البندقيَّة. وكان قسطنطين التاسع، ذلك الرجل المنكود الحظ الذي حكم في الفترة التي سقطت فيها القسطنطينيَّة أخيراً بيد الأتراك سنة 1453، هو الإمبراطور الوحيد الذي يبدو وكأنه لم يصدر أي نقد على الإطلاق. وهناك مثل معروف يقول: «اختفت الإمبراطوريَّة عندما أنفقت آخر سو sou بحوزتها»[22].

أثار مقال لوبيز حول دولار العصور الوسطى سؤالاً مهماً بشأن طبيعة المجتمع البيزنطي الحقيقيَّة، من حيث تركيزها المفرط على التباهي بالذهب بأسلوب يدل على الذوق السقيم واعتمادها البيزنط الشديد الاعتداد: «هل إنَّ مزايا عملة ما مستقرّة وذات قيمة، تستحق كل تلك التضحيات التي بُذلت للحفاظ على استقرارها؟...»[23] وبتعبير آخر، ماذا كسب البيزنطيون في النهاية نتيجة بذل كل ذلك الجهد المستميت في سبيل تشجيع صادرات بضائعهم الخاصة وتقييد الواردات من البضائع الأجنبيَّة؟... لا شيء سوى المزيد من الذَّهب. لا شك بأن الذهب قد منح عملة البيزنطيين قيمة وقبولاً لدى الأمم الأخرى. ولكن ماذا ينفع تكديس الذَّهب لدى أمَّة ما إذا لم يتم إنفاقه؟... إنَّ بإمكان الملك ميداس الإجابة على مثل هذا السؤال. وفي نهاية المطاف، فإنَّ مواطني أيَّة أُمَّة في حاجة لأن يأكلوا ويرتدوا الثياب وينتقلوا من مكان لآخر ويتمتعوا بأسباب الرفاه.

ورغم أن لوبيز كان يستعرض أحداثاً وقعت قبل ألف سنة، إلاَّ أن السؤال ذاته كان يتكرَّر على الدوام عبر التاريخ، وبخاصة في المئتي سنة الأخيرتين من تطور الرأسماليَّة. وسوف نرى في الفصول اللاحقة، أن تلك المسألة قد هزَّت

إسبانيا بعد أن بدأ الغزاة الأسبان يشحنون الذَّهب عائدين به من المكسيك والبيرو، كما أن المسألة ذاتها قد استولت على جل اهتمام بريطانيا في نهاية القرن السابع عشر وخلال الحرب ضد نابليون وذلك عندما اشترك الاقتصادي الكبير ديفيد ريكاردو في النقاش بكل قواه. وقد شكَّلت المسألة ذاتها لب الخلاف بين أندرو جاكسون وبنك الولايات المتحدة خلال المعركة الشجاعة، ولو أنَّها كانت خاسرة، تلك المعركة التي قادها ويليام جيننغز بريان ضد صَلْب العمال الأمريكيين على صليب من ذهب، كما نراها في ذلك الصراع المستميت في سبيل استرجاع نظام عملة فعَّال بعد الحرب العالميَّة الأولى وخلال مرحلة الكساد الكبير، ونراها أيضاً في الهجوم المفعم بالتعصّب الذي شنَّه الجنرال ديغول ضد الدولار الأمريكي في ستينات القرن العشرين، وفي التأكيد الفعلي لآلان غرينسبان في التسعينات من القرن نفسه.

لا ينكر لوبيز أن البيزنطيين كانوا يتمتعون على الأغلب بمستوى معيشي أعلى مما تمتع به الأوروبيون والعرب حتى سنة 1200 تقريباً، رغم اعتقاده بأن البيزنطيين لا يُعتبرون بالضرورة أمّة من المتفوقين إذا ما قيسوا بمعيار التطور والنمو، ويبدون وكأنَّهم قد توقفوا عن الحركة عند مستوى مرتفع نسبياً بينما كانت بقيَّة الأُمم تجاوزهم. وعلى الرغم من عدم انتظام التطور الاقتصادي في أوروبا الغربيَّة وفي الدول العربيَّة، إلاَّ أن عملاتهم الأكثر ضعفاً والأقل نقاء، وما رافقها من حالات تضخم معتدلة، قامت بإحداث تأثيرات إيجابيَّة على وجه العموم. فعلى سبيل المثال، بدأت المراحل الأولى من تضخم الدينار عندما كان العراق في أوج قوته[24]. كما أن تخفيض قيمة النَّقد والتضخم في كل من أوروبا والشرق الأوسط أدَّيا إلى حدوث تطور سريع في عمليات إقراض المال والأعمال المصرفيَّة، وبخاصة في إيطاليا، مما سهَّل إلى حد كبير حدوث نمو اقتصادي في كلتا المنطقتين. وكثيراً ما يأخذ التضخم شكل ارتفاع تدريجي في مستوى الأسعار لا بشكل تَفجُّر مفاجيء لفوضى اقتصاديَّة.

إنَّ عمليَّة من هذا النوع تميل لاقتلاع جذور المحافظين، وتجعل من التغيير أمراً لا مفر منه، كما أنَّها تكافىء الشجعان. ويمضي لوبيز في القول: «إنَّ بريطانيا هي الدولة الغربيَّة الوحيدة التي قاومت نزعة التضخم بعناد وبنجاح، وكانت في ذلك الوقت دولة متخلفة اقتصادياً»[25]. إنَّ انطباع الإنكليز عن أنفسهم كحامي مشعل سلامة النَّقد قد استمر لمئات السنين، ولم يكن ذلك الانطباع ليعود عليهم بالنفع دائماً، فالاستقامة الماليَّة رغم أنَّها تثير الإعجاب، لم تكن الطريق الأكيد للازدهار على الإطلاق. فبعد أن أدَّى ذلك الفيض الغامر من الأوراق النّقديَّة والودائع المصرفيَّة الذي جاء نتيجة المتطلبات الماليَّة الكبيرة للصراع مع نابليون وللحرب العالميَّة الأولى، أدَّى إلى إجبار بريطانيا على تعليق إمكانيَّة تحويل الإسترليني إلى ذهب، جاء الهوس «بالنَّقد ذي النوعيَّة العالية» ليعيدها إلى الذهب في أول لحظة مؤاتية. وفي كلا الحالتين، كانت النتيجة حدوث تضخم شديد رافقته اضطرابات اجتماعيَّة خطيرة.

لقد أدَّى قرار العودة إلى الذَّهب في سنة 1925، بشكل خاص، إلى إصدار سلسلة من القرارات التي كبحت النشاط الاقتصادي إلى أن تم تغيير تلك السياسة بعد ست سنوات. ورغم أن الألم والمعاناة في ذلك الوقت كانا كافيين بحد ذاتهما، إلاَّ أن بريطانيا لم تستطع إعادة مجد الإسترليني الذي كان مصدراً للرخاء والفخر لعدة مئات من السنين. وفي وقت ليس بالبعيد، عندما اختارت بريطانيا الانسحاب من اتحاد النَّقد الأوروبي سنة 1992 وتركت الباوند حراً لتنخفض قيمته، تحسنت الصادرات مباشرة وقفز معدل النمو الاقتصادي إلى الأمام بينما كان شركاؤها السابقون في القارة الأوروبيَّة، الذين تصرفوا بشكل أكثر صحة، يعانون ركوداً اقتصادياً.

وهنا يفترض لوبيز أن الأسباب العميقة للمفارقات التي يوردها قد تكون نتيجة اختلافات مهمة في تركيبة الأمة نفسها، فهو يقول: «كانت بريطانيا والإمبراطوريَّة البيزنطيَّة مَلَكيات مركزيَّة ذات طبقات ارستقراطيَّة قويَّة من مالكي

الأراضي، بينما كان التجار وبقيَّة رجال الأعمال هم الذين يسيطرون على مجريات الأمور في الكوميونات الإيطاليَّة؛ كما أن المصرفيين ورجال الأعمال كانوا يتمتّعون بنفوذ قوي لدى الخلافة الإسلاميَّة عندما بدأ التضخم». ويرى لوبيز أن الملوك يربطون منزلتهم وكرامتهم بنقاء نقدهم، ولا شك بأن هذا هو وضع الأَباطرة الذين حكموا القسطنطينيَّة. أما التجار فهم، على العكس من ذلك، يتمتعون بمرونة أكبر في مجال اتخاذ قراراتهم، وهم أقل ارتباطاً بالماضي، كما أنَّهم يواجهون ضرورة لا مفر منها لاغتنام الفرصة حيثما وجدوها.

لا شك بأن تفسير لوبيز يلاقي قبولاً، لكن كثرة الاستثناءات تجعل منه قاعدة مشكوكاً بصحتها. فالهوس بالنَّقد المستقر لم يكن حكراً على المَلَكيات المركزيَّة، ولم تقتصر السياسات المؤدية للتضخم على المجتمعات التي يهيمن عالم الأعمال عليها. فقد كان هنري الثامن، مثله مثل الأَباطرة الرومان، أحد أكبر خافضي قيمة النَّقد في التاريخ، لكنه كان بالإضافة لذلك ملكاً ناجحاً. وقد وقع أسوأ تضخم في التاريخ في مستهل عشرينات القرن العشرين، بعد أن قام الألمان بخلع القيصر مباشرة، كما كان النَّقد المستقر هدفاً يسعى إليه الإنكليز بعد وقت طويل من قيام البرلمان بمصادرة السلطة من الملكيَّة، وشكَّل أحد الاعتبارات التي اكتسبت أَهميَّة فائقة لدى ألكنسدر هاملتون حين ولدت الديمقراطيَّة الأمريكيَّة، وكان القوة المحركة للسياسة الاقتصاديَّة في كل من جمهوريتي ألمانيا وسويسرا منذ الحرب العالميَّة الثانية.

ولسبب ما افتقدت الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة تلك الديناميكيَّة اللازمة للمحافظة على بقائها في وجه عودة أوروبا إلى حيويتها بعد الغزوات الهمجيَّة. وقد يعود ذلك إلى أن النجاح قد أدَّى، بكل بساطة، إلى جعل البيزنطيين أقل

ميلاً لإثارة المشاكل من الأوروبيين الذين كانوا لا يزالون يشقّون طريقهم خارجين من خرائب الإمبراطوريَّة الرومانيَّة.

لم تكن التهديدات التي واجهت القوة البيزنطيَّة تأتي من الغرب فقط. فلقد سبق وذكرنا التأثير الذي تركه العرب المسلمون على بيزنطة الذين برزوا فجأة في القرنين السابع والثامن، وانطلقوا في طريقهم لغزو العالم باسم الإسلام. ويستحق العرب منا نظرة متأنيَّة: إنَّ العالم بأسره في ذلك الوقت، من المحيط الأطلسي وحتى المحيط الهادي، قد شعر بانعكاسات ذلك الجهد الجبار الذي كان يهدف إلى نشر «الرسالة»، وإلى كسب الثروة عن طريق التجارة في ذات الوقت. وكما كان الأمر بالنسبة للبيزنطيين، فقد لعب الذهب دوراً مركزياً في ذلك المشروع.

obeikandl.com